الصهيونى الأول

[مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين]

للأستاذ سعيد الأفغانى

بات العرب فى شارق الأرض ومغاربها فى ثم منهم مقدم من خطر الصهيونية بفلسطين ، ومن كفر ساسة الانجليز والأمريكان بالضمير والانسانية . ولقد حق لهم ذلك فان فى إبرت غريزتهم التاريخية — من حيث لا يشعرون — علم ما تكمن الصهيونية من قوة على الشر ، وعبقرية فى تهديم مثل الخير والحق وما تستتبع من شرور آخذ بعضها بحجز بعض ، وبعض هذا كاف فى تبرير همهم وفزعهم .

وجميع الباحثين فى تاريخ هذا الجرثوم الخبيث يردون نشأته إلى القرن الثامن عشر ، لا يرقون إلى ما قبل ذلك ؛ فما قول القارىء الكريم إذا عرف أن العرب بلوا بفتك هذا الداء منذ أربعة عشر قرناً ؟ وأن عبقريته الهدامة فعلت فيهم فعلها الخبيث وبقوا يعانون آثارها السرطانية فى وحدتهم الدينية والقومية حتى يوم الناس هذا

وظاهر أنى عينت أعظم مأساتين فى تاريخ المسلمين : مقتل عثمان وحرب الجمل ، وأكثر المؤرخين يوزعون التبعة بين بعض الزعماء غافلين عن روح الشر وبطل الفتنة ، والقليل منهم ممن انتبه إلى عامل الحقيق جعل له نصيبا ثانويا فى تأريث الشر . أما أنا فقد خرجت من بحثى بيقين لا يعدله يقين إلى أنه كان فى الفتنتين جميعا عامل أول واحد هو هذا الصهيونى الأول ، وإليك البيان منتزعا من كتاب أعده عن (عائشة والسياسة) بعد ذكر الحوادث المروقة .

فى مأساة عثمان :

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى مأتى السيدة عائشة بعد عثمان أن أنبه إلى سبب هام أعزو إليه تبعة هذه المأساة ، مأساة عثمان التى ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعدها قط . أودع أيام عثمان مقرراً : أن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة كعلى وطلحة والزبير وعائشة . هو — بعد التمحيص — من التبعات الثانوية . أما أقوى الأسباب التى أرثت الشغب وهاجت الاضطراب وبذرت الشرور وأوقدت الفتنة ؛ فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة ، سهر عليها أبالسة خبيرون ، وسددوا خطاها وتعهدوها فى جميع الأطوار حتى آتت ثمرها . ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحق من التوضيح والإهتمام

وأنا أجزم هنا أن الأسباب التى يذكرونها كلها ، والتبعات التى يوزعونها بين من ذكرت ومن لم أذكر ... لن تقوى مجتمعة على أن تساوى هذا السبب الهام الذى أشرت إليه ؛ بل أجزم أنها جميعاً عناصر (ثانوية) لم تكن لتنتج شيئاً لولا هذا الجو الذى هيأه إبليس هذه المؤامرة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء . وأبعد من هذا ، أنى أومن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شىء قط من هذه المساعى التى يذكرونها ، لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً فى بلوغ النتيجة المشؤومة نفسها .

* * *

عبد الله بن سبأ يهودى من صنعاء أمه سوداء ، تظاهر بالإسلام على عهد عثمان ، ثم اندفع متنقلا فى البلدان الإسلامية باذراً الضلالات والشرور فى هذا المجتمع السليم . وهو رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، أقطع أنه أحد أبطال جمعية سرية مخيفة غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأكاد أظن أن هذه الجمعية تعمل (لحساب) دولة أجنبية . هى دولة الروم التى انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسمين غنيين : مصر والشام .

والغريب الذى لم أقض منه عجباً أن نشاط هذا الرجل قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة هى الميدان الدينى ، والميدان السياسى ، والميدان الحربى .

لقد أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين : الرجعة والوصاية . وقد حفظ لنا الطبرى بعض نصوص تعاليمه ، فمنها :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد[1]) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت فى المجتمع .

ثم قال لهم بعد ذلك : « إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى

(١) سورة القصص ٢٨ الآية ٨٥ .

وصى ، وكان على وصى محمد ... ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء[1] » .

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد ؛ فجمع بين إفساد الميدان الدينى والسياسى فى إذاعة قوله : « فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة[1] » . ثم قال بعد ذلك لأتباعه : « إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر[1] » . وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكى قلوب الناس إذ تلطف لهم ؛ فجاء من الجهة التى تحن لها قلوبهم ، وتهواها أهواؤهم .

لقد طاف الأقطار العربية قطراً قطراً ، بدأ بالحجاز باثاً ضلالته ، ثم انعطف إلى الشام والشام يومئذ بيد بصير بأمره معاوية بن أبى سفيان ، الذى فطن إلى خطره فأبعده ؛ إلا أنه على حذره أصابه رشاش من إفساده . والطبرى يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر[2] » .

والصحيح أنه قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية محامياً جليلا أذعن عامة الشاميين لأقواله حتى اضطر معاوية الداهية الحليم إلى أن يطلب من الخليفة عثمان إخراجه من الشام ، ذلك هو أبو ذر الغفارى وحادثه معروف مشهور ؛ وهذا الطبرى نفسه يتولى قص الحادث :

« لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال : « يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : (المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله ! !) كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ؟ فأتى أبو ذر معاوية فقال له : « ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » قال معاوية : « يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ ؟ » قال أبو ذر « فلا تقله[3] » ... ثم كان ما كان من تأليب أبى ذر الأغنياء على الفقراء وخوف معاوية على الشام منه ومن دعوته ، ثم نفيه منها .

إنى لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته ، وإحكام دراسته لنفسيات الناس ، لقد عرف الخبيث من يختار من الشام فيخدعه بالله ، ولقد وفق التوفيق كله بهذه المقالة التى فصلها على مزاج أبى ذر ، فلم يكد يلقيها حتى طار بها أبو ذر فخط على معاوية . وهذا هو فن ابن السوداء الذى أنجح مساعيه ؛ فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم ؛ و(استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع فى إحكام خطط الشر ، واستغلال حسن غفلة المسلمين عن نواياه ، وخداع ماكر لهم عن دينهم ، وسلامة دولتهم .

لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كبيراً : إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وشغلها عن الاندفاع فى الفتوح ، وما استتبعت بعد ذلك من شرور أخذ بعضها برقاب بعض أفظع وأشنع هولا . ولو وقع ابن السوداء هذا لإنجلترا اليوم لاستغنت به فى إقناء عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات استخبارية تعج بالخبيرين الفنيين .

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذى لم يكن يتوقعه فى الشام ، فأتى أبا الدرداء ، فغبن هذا لمكره فقال : « من أنت ؟ أظنك والله يهوديا[1] » ، ثم انصرف عنه فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به عبادة وسلمه إلى معاوية قائلا : « هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر[1] » .

« كان حكيم بن جبلة رجلا لصاً ، إذا قفل الجيوش خنس عنهم ، فيسعى فى أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتسكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى عامله عبد الله بن عامر : (أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً) . فحبسه فكاد لا يستطيع أن يخرج منها[2]) .

على هذا الرجل المفسد الموتور الجرىء الناقم على عثمان ، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة . وصار يجتمع إليه الناس ويبث إليهم تعاليمه الهدامة ومقالاته الثورية المفرقة ، بلباقة ، لا يصرح

(١) اظفر هذه الأقوال كلها وغيرها فى تاريخ الطبرى ٣ — ٣٢٨ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨) .

(٢) الصفحة السابقة .

(٣) الجزء نفسه ص ٣٣٥ ، ٥٢ ، ٢٥

(١) ص ٣٦٨ .

فيها بما يتم عن نواياه ، وفشا أمره وقبل الناس ما يقول وعظموه وبلغ خبره الوالي عبد الله بن عامر . فأرسل إليه فسأله «ماأنت» ؟ فأخبره : « أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك » . فقال عبد الله : « ما يبلغني ذلك ، اخرج عني » فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فاستقر بمصر وجعل يكاتب جماعاته في الأمصار ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم[1] » .

هكذا صار ابن السوداء بماله من (استخبارات وفروع) يتسقط الناقمين واحداً واحداً : ممن ناله عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة ، أو ممن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها ... فجعلهم حزبه وبطانته وألف بينهم حتى صار له في كل بلد جماعة . فلما نظم هذه الفروع استقر بمصر بؤرة الناقمين ، وألقى إلى جماعاته في الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية التي تسمى الثورة ، وإليكها كما حفظها الطبري :

« انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر » .

فبث دعاته ، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضمونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه هؤلاء في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون ؛ فيقول أهل كل مصر : « إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء » ... إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : « إنا لفي عافية مما فيه الناس[2] » .

(١) الطبري ٣ — ٣٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٣ — ٣٧٩ . — هذا وعجبي من أحد رواة الطبري فهم جيد لفلسفة الحوادث : إنه يعزو كثرة الناقمين من الصعاليك إلى عامل اقتصادي هو فقر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم الوافرة والضياع العامرة ، وحسد الصعاليك لهم حسداً خفياً لا يظهرونه لأنه « لا حجة لهم فيه والناس عليهم ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابي أو محرر استحل كلامهم فكانوا في زيادة والناس في نقصان =

وأحكمت هذه الجماعة أمرها ومؤامرتها ، وأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاؤوا من شكوى واستنجاد بأهل الأمصار ، وتحريض لهم على الثورة والخلع ، وجعلوا هذه الكتب على لسان علي وطلحة والزبير وعائشة .

لقد ملأ ابن السوداء البلاد نقمة وثورة وفساداً ، وأصبحت الأقطار كلها هشيماً يابساً ينتظر شرارة واحدة كان إرسالها أهون شيء على جمعياته وأتباعه . فلما قدمها التهمت الأخضر واليابس وأراقت الدماء ، وسالت جموع الثائرين من أهل الأمصار المختلفة على مدينة الرسول وكان ما يعرف كل قارىء من قتل الخليفة الشهيد على حال تبكي الصخر الأصم .

وهكذا قضى هذا الصهيوني الأول على حكم (المدينة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين .

(للحديث صلة) سعيد العريان

= حتى غلب الشر » ٣٥١ — ٣٢٣ ومن هذه الكثرة التي نمت في الخفاء وجد ابن السوداء وأتباعه مادة وقودهم ، فما هبت الهبعة إلى الشر حتى كانوا جميعاً على استعداد للفتنة .

صدر بالأمس فسارع إلى شرائه من :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وفيه بحوث عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً